2- بعض مناهج البحث العلمي (عموما وفي علوم الإعلام والاتصال خصوصا)

2-1- المنهج التاريخي

يعتبر المنهج التاريخي أحد أشكال الدراسات والبحوث الكيفية والتي تعتمد على أفكار تخلو من السند الرقمي فهذا المنهج قائم على ما كتب عن الأقدمين من قبل أناس قد لا يكونوا عاصروا الحدث وإنما تلقوه من الرواية الشفهية أو استنبطوه من الآثار، والتي لا تُعد أمورا قاطعة وموثوقا بها في كل الأحوال. ولهذا يُنظر إلى هذا المنهج نظرة متشككة بصفته منهجا علميا يُعتد به، إلا في الحالات والظواهر التي لا يمكن دراستها بغيره. وفي بعض المراجع حول المناهج البحث العلمي يُعد المنهج التاريخي جزء من المنهج الوثائقي، بحيث يشار إلى المعارف المستقاة من الوثائق إلى أنها تستخدم المنهج التاريخي أو العكس(بن عبد الله الدبل، 2019، ص. 70).

وقد يتداخل على الطالب الفرق بين التاريخ كعلم، وبين المنهج الذي يدرس هذا العلم، لذلك ينبغي علينا التفرقة بينهما، وبداية لابد أن نعرّف التاريخ كي يسهل علينا فيما بعد تعريف المنهج التاريخي، فالتاريخ كما عرفه هومر هوكيت بأنه السجل المكتوب للماضي، أو للأحداث الماضية. ويعرّفه آلان نفنس بأنّه وصف الحوادث أو الحقائق الماضية وكتابتها، بروح النقد والبحث عن الحقيقة الكاملة . أما من وجهة نظر كارترفاجود فيرى أن التاريخ واسع كاتساع الحياة نفسها، وهو يضم الميدان الكلي الشامل للماضي البشري والحقائق والبيانات التاريخية ويجب أن ينظر إليها على أنها جزء لا يتجزأ من عملية النمو الاجتماعي وعملية الحياة الاجتماعية الشاملة التي كانت تحيط بها أكثر منها حقائق متفرقة أو منفصلة عن الحياة المحيطة بها(الجيلاني وسلاطنية، 2012، ص. 62).

2-1-1- تعريف المنهج التاريخي

يعرف مرويس أنجرس المنهج التاريخي على أنّه طريقة لتناول وتأويل حادثة وقعت في الماضي، وفق إجراء البحث والفحص الخاص بالوثائق (موريس، 2006، ص. 105).

ويعرفه محمد عبد الحميد على أنّه ذلك المنهج الذي يستلزم استرداد الماضي بطريقة منهجية وموضوعية من خلال تجميع الأدلة، وتقويمها، والتحقق منها، ثم تركيبها لاستخلاص الحقائق والوصول إلى نتائج أو خلاصات محكمة (محمد، 2000، ص. 262).

ويعرفه محمود أحمد درويش على أنّه مجموعة الطرق والتقنيات التي يتبعها الباحث والمؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية. وإعادة بناء الماضي بكل وقائعه وزواياه، وكما كان عليه زمانه ومكانه، ويجمع تفاعلات الحياة فيه، وهذه الطرق قابلة دوما للتطور والتكامل مع تطور جموع المعرفة الإنسانية وتكاملها ومنهج اكتسابها (أحمد درويش، 2018، ص. 141). ويعتمد المنهج التاريخي على وصف وتسجيل الوقائع والأنشطة الماضية، ودراسة وتحليل الوثائق والأحداث المختلفة، وإيجاد التفسيرات الملائمة والمنطقية لها على أسس علمية دقيقة، بغرض الوصول إلى نتائج تمثل حقائق منطقية وتعميمات تساعد في فهم ذلك الماضي، والاستناد على ذلك الفهم في بناء حقائق الحاضر، وكذلك للوصول إلى قواعد للتنبؤ بالمستقبل(نفس المرجع السابق، ص 140).

يعرف حسن عثمان المنهج التاريخي بأنّه المراحل التي يسير خلالها البحث حتى يبلغ الحقيقة التاريخية – بقدر المستطاع– ويقدمها إلى المختصين بخاصة والقراء بعامة. وتتلخص هذه المراحل في تزويد الباحث نفسه بالثقافة اللازمة له، ثم اختيار موضوع البحث، وجمع الأصول والمصادر، وإثبات صحتها، وتعيين شخصية المؤلف وتحديد زمان التدوين ومكانه، وتحري نصوص الأصول وتحديد العلاقة بينها، ونقدها نقدا باطنيا وإيجابيا، وإثبات الحقائق التاريخية، وتنظيمها وتركيبها، والاجتهاد فيها، وتعليلها، وإنشاء الصيغة التاريخية، ثم عرضها عرضا تاريخيا معقولا(حسن، 2000، ص. 20).

ويعرفه حسين عقيل على أنّه الطريق الذي يختاره الباحث في تجميع معلوماته وبياناته العلمية في دراسة الموضوع، والذي يسلكه في التحليل والتفسير، وتبيان الحقائق ولأن هذا المنهج موضوعه الواسع هو التاريخ، فيكون المنهج هو الطريق الذي يربط بين الحاضر والماضي والمتوقع. أنه المنهج الاستقصائي في الدراسات العلمية، والاجتماعية، والانسانية، أي أنه لم يقتصر على الدراسات التاريخية كعلم التاريخ فقط بل أهمية تسعُ دراسة كل العلوم(حسين عقيل، 1999، ص. 58).

كما يعرّف المنهج التاريخي بأنّه عملية منظمة وموضوعية لاكتشاف الأدلة وتحديدها وتقييمها والربط بينها من أجل إثبات حقائق معينة، والخروج منها باستنتاجات تتعلق بأحداث جرت في الماضي، إنّه عمل يتم بروح التقصي–الناقد لإعادة البناء، وصمم ليحقق غرضا صادقا أمينا لعصر مضى(أبراش، 2008، ص. 142).

ويعرف محمود أبو علام البحوث التاريخية نقلا عن (Mouly, 1970) بأنّه دراسة مشكلة في الماضي تتطلب جمع بيانات تاريخية، تكون أساسا للبيانات التي يتم تحليلها. والمصادر الأولية مهمة للغاية في مثل هذا النوع من الدراسات وذلك حتى يكون البحث صادقا وثابتا(محمود أبو علام، 2006، ص. 314).

2-1-2- المنهج التاريخي وبحوث الاتصال

يعتبر المنهج التاريخي أداة البحث في المشكلات أو الظواهر الإعلامية في بعدها التاريخي أو سياق الوقائع والأحداث التي حدثت في الماضي. سواء لأغراض وصف الظاهرة الإعلامية وتسجيلها كما حدثت في الماضي مثل تسجيل تاريخ المؤسسات الإعلامية والبارزين فيها، أو لأغراض تفسير علاقات الظاهرة الإعلامية وعناصرها بالوقائع والأحداث التي حدثت أيضا في الماضي. وفي جميع الحالات يعتبر المنهج التاريخي هو أداة البحث في دراسة في دراسة مثل هذه المشكلات أو الظواهر (محمد، 2000، ص. 262).

ويستلزم البحث التاريخي في مجال بحوث الاتصال كما ترى رُبِكا روبين وآخرون (Rebecca Rubin et al) استخلاص النتائج وتقديم تفسيرات جديدة حول الأحداث الاتصالية أو المتحدثين (القائمين بالاتصال)، ويتعامل الباحثون الذين يجرون أبحاثا تاريخية في مجال الاتصال مع الوثائق والتسجيلات والآثار، مثل الخُطب الأصلية، والرسائل، والتسجيلات الموجودة في مراكز الأرشيف أو في المكتبات وغيرها، ويفضل الباحثون دائما المصادر الأصلية عن المصادر الثانوية. ويمكن أن تكون الدراسات التاريخية في مجال الاتصال عبارة عن سيرٍ ذاتية، أو حول فكرة معينة أو حركة ما، أو عن أحد المؤسسات، أو حالة تاريخية. فقد يكون موضوع أحد الدراسات التاريخية سيرة ذاتية لشخصية سياسية، أو اقتصادية أو أي شخصية أخرى. وقد تتقصى دراسة تاريخية أخرى عن حركة حقوق المرأة، أو الحقوق المدنية، أو الحركات المناهضة للحروب في فترة زمنية معينة. وقد تركز دراسة تاريخية أخرى على مؤسسة معينة، كأن تتناول بالفحص والتحليل القوى المجتمعية التي أثّرت في تطور أحد المؤسسات الإخبارية خلال فترة معينة(Rubin, Alan, Paul, & Linda, 2010).

ويرى سكودسون مايكل (Schudson Michael) بأنّ الكتابات المتعلقة بتاريخ الاتصال غير ناضجة بالقدر الكافي، ويُرجع ذلك إلى أن اهتمام المؤرخين بأسباب وآثار الأحداث الماضية واعتقادهم بأنّ الوسائط الاتصالية ما هي إلاّ مجرد ناقل وفقط، ولذلك لم تأخذ الوسائط الاتصالية مساحة مركزية ضمن الأحداث التاريخية، وكانت الكنيسة والدولة والأحزاب هي محور البحوث التاريخية. إلاّ أنّ تاريخ الكتابة (الكتب)، والقراءة، والمطالعة العمومية هي الاستثناء ضمن تلك البحوث التاريخية في مجال الاتصال، فقد عرفت

اهتماما كبيرا من قبل الباحثين. ويشير إلى أنّ بحوث الاتصال تتطلب دراسة وتحليل إنتاج الرسائل، ومحتواها، واستقبالها من قبل الجمهور، ومما لا شك فيه أن موضوع الاستقبال هو الذي لم يلقى الاهتمام من قبل المؤرخين(Figaro, 2015, p. 152). وبقصد تطوير بحوث تاريخ الاتصال، إقترح سكودسون ثلاث تصنيفات لتلك البحوث:

1- التاريخ الكلي للاتصال: وهو الأكثر رواجا بين أنواع بحوث تاريخ الاتصال، وهو يأخذ في الاعتبار علاقة الوسائط الاتصالية بالتطور البشري. هذا الصنف من بحوث تاريخ الاتصال هو الذي أثّر على الفكر الاتصالي للعديد من الباحثين على غرار هارولد (Harold Innis) ومارشال ماكلوهان (Marshall Mcluhan).
2- تاريخ الاتصال الأصيل: وهو الصنف الأقل تطورا في بحوث تاريخ الاتصال، رغم كونه الأكثر ارتباطا ببحوث الاتصال لأنه يأخذ في الاعتبار علاقة الوسائط الاتصالية بالتاريخ الثقافي، أو السياسي، أو الاقتصادي، أو الاجتماعي. مثل دراسة إليزابيث أيزنستاين (Elizabeth Eisenstein, 1979) حول تأثير التحول من ثقافة النسخ اليدوي إلى ثقافة الطباعة على الفكر الاجتماعي والسياسي والعلمي.
3- التاريخ المؤسساتي: وهي البحوث التي تهتم بدراسة الوسائط الاتصالية وبالمؤسسات الاتصالية بالدرجة الأولى، وكذلك تاريخ اللغة، وتاريخ نوع معين من المطبوعات (الرواية)، أو الأفلام. مثل الدراسات التي يتم إجراؤها على تاريخ صحيفة معينة، أو مجلة، أو شركة إعلانات وغيرها(Schudson, 1991, pp. 177-178).

2-1-3- أهداف المنهج التاريخي

- يهدف البحث التاريخي إلى الوصول إلى المبادئ والقوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية من خلال البحث في أحداثها الماضية كيف نشأت وكيف تطورت؟ وما هي العوامل التي حكمت نشأتها وتطورها؟(أبراش، 2008، ص. 142)
- كما يهدف البحث التاريخي إلى تفسير الأحداث والتنبؤ بها. ولا يجب أن يكون الغرض من البحث التاريخي برهان أو تدعيم موقف مفضل لدى الباحث.
- إعادة بناء الماضي بدراسة الأحداث الماضية، معتمدا في الأساس على الوثائق والأرشيف(موريس، 2006، ص. 105). والعودة إلى الماضي هو ما يميز المنهج التاريخي عن غيره في مناهج

العلوم الاجتماعية، فهو منهج غير مباشر، لأنه منهج يعتمد المصادر المتعلقة بالظاهرة أو الحدث وليس بمعايشة الظاهرة نفسها(أبراش، 2008، ص. 142).

2-1-4- خطوات البحث في المنهج التاريخي

يتفق بعض الباحثين على غرار (محمود أبو علام، 2006، ص ص. 315-314) (أحمد درويش، 2018، ص ص. 152-144) على خطوات البحث التاريخي كالتالي:

- تحديد المشكلة وصياغة الفرضيات؛
- جمع البيانات من مصادرها وتصنيفها، مع تحديد الحقائق عن طريق النقد الخارجي والداخلي؛
- تنظيم الحقائق في نتائج، وتكوين خلاصات؛
- كتابة تقرير البحث.

كما يشير أبو علام إلى أنّ البحث التاريخي يختلف عن البحث الإمبريقي في طبيعة البيانات التي لا تجمع من أفراد حاليين، ولكنها تجمع من مصادر أولية وثانوية يتم التحقق منها كما جاء في الخطوة الثالثة(محمود أبو علام، 2006، ص. 315). وسوف نعرض بعض تلك الخطوات بشيء من التفصيل:

تحديد المشكلة وصياغة الفرضيات:

ويقصد بذلك تحديد المشكلة العلمية التاريخية التي تمثل موضوع البحث التاريخي التي تقوم حولها التساؤلات والاستفسارات العلمية التاريخية، الأمر الذي يؤدي إلى تحريك عملية البحث لاستخراج فرضيات علمية تكون الإجابة العلمية الصحيحة والثابتة، ويتم اختيار موضوع البحث التاريخي على ضوء المعايير المتعارف عليها لاختيار هذه التساؤلات ومشكلات البحوث، مع الأخذ في الحسبان أبعاد جديدة تتعلق بالمكان والزمان التي حصلت فيه الظاهرة أو تم فيه الحدث التاريخي، وكذلك نوع الأنشطة التي تضمنها والأشخاص الذين تناولهم. فالمشكلة العلمية التاريخية هي تلك الفكرة المحركة والفائدة التي توجّه الباحث العلمي، حتى الوصول إلى فرضيات ونظريات وقوانين عامة ثابتة وعامة تفسر وتكشف الحقيقة العلمية التاريخية لهذه الفكرة(أحمد درويش، 2018، ص. 144).

وللحصول على مشكلات تاريخية يحب أن يرجع الباحث إلى البحوث السابقة، حيث يجد مقترحات ببحوث جديدة يختار منها ما يناسبه. وعند العثور على ما يريد، يجب عليه أن يصوغ مشكلة البحث بطريقة واضحة ومحددة يمكن أن تكون أساسا لجمع البيانات التاريخية، كما هو الحال في البحوث غير التاريخية. وإذا لم

يكن الباحث محددا في صياغة المشكلة فقد ينتهي به الأمر إلى جمع كمية هائلة من البيانات يصعب عليه تحليلها وإعادة تركيبها، تمهيدا للوصول إلى الخلاصات التاريخية الموثقة التي يسعى إليها(محمود أبو علام، 2006، ص. 316).

وبعد تحديد مشكلة البحث بشكل دقيق ينتقل الباحث إلى وضع مجموعة من الأسئلة البحثية أو مجموعة من الفرضيات، حيث تبدأ الفرضية في البحث التاريخي على هيئة تصور ذهني عام ينطلق منه الباحث، فيعمل على تجميع البيانات الممكنة التي يحتمل أن تزيد هذا التصور جلاء ووضوحا، حين تترابط في كل ذي معنى، مما يؤدي إلى مراحل متقدمة في صورها المعدلة، وليس في صورتها الأصلية التي مثلت نقطة الانطلاق في البحث(أحمد درويش، 2018، ص. 147).

جمع البيانات من مصادرها وتصنيفها، مع تحديد الحقائق عن طريق النقد الخارجي والداخلي:

بعد تحديد موضوع أو مشكلة البحث وصياغتها، تأتي الخطوة الثانية وهي جمع كافة الحقائق والوثائق المتعلقة بهذه المشكلة، حيث يقوم الباحث بجمع المعلومات من مصادرها الأولية والثانوية(أحمد درويش، 2018، ص. 145). فالمصادر الأولية هي المصادر الأصيلة المباشرة، مثل الوثائق الأصيلة، والتقارير التي كتبها المشاركون في الحدث أو الملاحظون المباشرون له(محمود أبو علام، 2006، ص. 313). أو آثار الأقدمين ومنازلهم وما يرتبط بحياتهم اليومية(بن عبد الله الدبل، 2019، ص. 70). أما المصادر الثانوية فهي مصادر غير مباشرة مثل الكتب أو دوائر المعارف، أو التقارير التي كتبها أناس قريبون من المشاركين أو الملاحظين للحدث(محمود أبو علام، 2006، ص. 313)، أو أقوال أشخاص عاصروا من شاهد الحوادث الماضية(بن عبد الله الدبل، 2019، ص 70). ونظرا لصعوبة الحصول على المصادر الأولية في البحوث التاريخية، نجد كثيرا من المؤرخين يرجعون إلى المصادر الثانوية، والاعتماد الزائد على المصادر الثانوية من أهم نواحي النقد الموجه للبحوث التاريخية. وكقاعدة عامة تزداد قيمة البحث التاريخي إذا اعتمد الباحث فيه على المصادر الأولية(محمود أبو علام، 2006، ص 313).

وبعد ما يقوم الباحث بجمع البيانات التاريخية، ينتقل إلى عملية تقويمها أو نقدها، ولهذا النقد مستويين، أحدهما خارجي والآخر داخلي. فالنقد الخارجي يعني إثبات أصالة وثيقة معينة باستعمال اجراءات متنوعة، وهو يسعى إلى إيجاد أصل الوثيقة، أي إرجاع الوثيقة إلى زمنها الحقيقي، ومعرفة كاتبها أو مؤلفيها، ومكانها الأصلي وكذلك تقييم حالتها، أي إدراك إن كانت تامة أم لا، فاسدة أم لا، بالكشف عن مواطن

الزيف والعثور على الأخطاء الممكنة(موريس، 2006، ص. 105). والنقد الخارجي هو أيضا العملية التي تحدد درجة الوثوق في المصادر. ويجب أن يعطي الباحث أدلة على كيفية ومتى وأين ولماذا صدرت الوثيقة التي يرجع إليها. ويجب أن يتأكد الباحث من أنّ الوثيقة أو المصدر الذي يرجع إليه ليس مزورا أو غير أصلي(محمود أبو علام، 2006، ص. 314). وهناك أيضا ما يعرف بالنقد الخارجي، وهي يعني إثبات مصداقية محتوى الوثيقة باستعمال إجراءات متنوعة، كذلك يسمى بنقد التأويل أو نقد المصداقية، ويتضمن التحقق من المعاني الحقيقية التي تحتوي عليها الوثيقة، ولهذا يركز الباحث على المحتوى وعلى الأسباب التي دعت إلى إنتاجه(موريس، 2006، ص. 105). وهو أيضا محاولة لتحديد معنى المعلومات التي يحصل عليها الباحث. ولذلك فإنّ معالجة البيانات في البحوث التاريخية عبارة عن تفسير البيانات التي يحصل عليها الباحث. ويجب أن يكون التفسير قائما على فهم معمق للبيانات، وتحديد واضح للعلاقات المتضمنة فيها مما يؤدي إلى الوصول إلى خلاصات وتفسيرات خالية من تحيز الباحث(محمود أبو علام، 2006، ص. 314).

تركيب البيانات

يجب تنظيم البيانات التاريخية وتركيبها وتأليفها، كما هو الحال في مراجعة البحوث السابقة، وذلك من أجل الوصول إلى الخلاصات والتعميمات الضرورية. وكما أننا لا نقوم في مراجعة البحوث السابقة بمجرد سرد لنتائج المصادر المختلفة، يجب ألا تكون نتائج البحث التاريخي مجرّد عرض زمني للأحداث. ويلاحظ أنّ نقاد البحوث التاريخية يشككون في صدق التعميمات التي تبنى على أحداث لا يمكن أن تتكرر بحذافيرها. وحيث أن تلخيص البحث التاريخي يقوم على التحليل المنطقي للبيانات وليس على التحليل الإحصائي، يجب أن يحرص الباحث على توخي الموضوعية ما أمكن. فقد يكون الباحث أكثر صرامة، ودون وعي منه، في تطبيق المعايير عندما يقوم بالنقد الداخلي لبيانات لا يحتاجها(محمود أبو علام، 2006، ص. 327).

ويرى نيومان (Neuman, 2000) أن تقرير البحث التاريخي يجب أن تستوفي عشر نقاط هي:

1- التتابع: الباحث التاريخي حساس للترتيب الزمني للأحداث، ويضع سلسلة من الأحداث في ترتيب زمني لوصف العملية؛

2- المقارنة: عقد مقارنة بين أوجه التشابه والاختلاف في الأحداث يعتبر أحد الخصائص المهمة للبحث التاريخي؛

3- الاقتران: كثيرا ما يكتشف الباحث التاريخي أن حدثا أو عملا أو موقفا ما يتوقف على أحداث أو أعمال أو مواقف أخرى أو يقترن بها. وبيان أن حدثا ما كان يتوقف على حدث آخر أمر مهم جدا؛

4- الأصول والنتائج: يقتفي الباحثون التاريخيون أصول الأحداث والأعمال والنظم والعلاقات الاجتماعية في الماضي، أو يتابعون نتائجها في الفترات الزمنية التالية؛

5- الحساسية للمعاني المتضاربة: تتغير معاني الأشياء عبر الحقب الزمنية المختلفة، كما تختلف عبر الثقافات المختلفة. ولذلك يتساءل الباحث التاريخي عما إذا كان معنى كلمة أو مصطلح نفسي أو تربوي (أو اتصالي) معين قد اختلف من فترة زمنية إلى فترة أخرى. أو إذا كان معنى كلمة في ثقافة ما هو نفس المعنى في ثقافة أخرى؛

6- التعميم المحدود: المبالغة في التعميم من الأمور التي تشكل مشكلة للبحوث التاريخية. ونجد أن قليلين من الباحثين التاريخيين هم الذين يضعون قواعد صارمة، ويتجنبون التعميم المبالغ فيه؛

7- ارتباط الأحداث: يحاول الباحثون التاريخيون التعرف على العوامل التي تظهر مع بعضها البعض في الزمان والمكان؛

8- الجزء والكل: من المهم وضع الأحداث في سياقها. إذ يقوم بعض الباحثين التاريخيين باستعراض سريع للروابط بين أجزاء عملية، أو تنظيم، أو بين حدث والسياق الذي ظهر في هذا الحدث؛

9- التشابه: قد يكون التشابه بين الأحداث مهما وبخاصة عند عقد مقارنات معينة. ولكن المبالغة في إعطاء تشابهات غير مناسبة قد يكون خطرا ويؤدي إلى الوصول إلى أحكام غير سليمة؛

10- التأليف: يقوم الباحثون التاريخيون بتركيب مجموعة من الأحداث والتفاصيل مع بعضها البعض في كل شامل. وتركيب النتائج المرتبطة ببعضها البعض من تعميمات وتفسيرات محدودة إلى فكرة واحدة متماسكة(محمود أبو علام، 2006، ص ص.329-327).